المبحث الثاني

الحملات الفاشلة على عسير وإمارة (أبو عريش)

المبحث الثاني

الحملات الفاشلة على عسير وإمارة (أبو عريش)

توطئة:

لم يتمكن محمد علي باشا من تثبيت سلطته على عسير في حملته عليها عام ١٢٣٠ هـ، فبمجرد عودته إلى مصر ثارت عسير بقيادة محمد بن أحمد المتحمي - ابن عم طامي بن شعيب - في ١٥ رمضان ١٢٣٠ هـ ضد قوات محمد علي باشا، وأخرجتها من مواقع تمركزها في (طبب) و(أبها) و(خميس مشيط) وغيرها[١]، ولكن الأوضاع السياسية الداخلية والخارجية كانت سيئة بالنسبة لحاكم عسير في تلك المرحلة، فداخلياً كان هناك تفكك في بعض القبائل نتيجة الرعب الذي أحدثته قوات محمد علي بحملاتها العنيفة على أطراف (عسير)، وخارجياً كانت الدولة السعودية الأولى في مرحلة من الضعف والانهيار؛ والشريف حمود المتربص والمتقلب في مواقفه السياسية يهدد مؤخرة القوات العسيرية[٢].

ولقد كان هناك من المبررات ما يدفع قادة عسير للبدء أولاً بالهجوم على الشريف حمود والتخلص منه، وذلك بسبب هجوم وزيره الحسن بن خالد الحازمي على (صبيا) واستعادتها من القوات العسيرية[٣]، إضافة إلى قيامه

---

(١) النعمي، المرجع السابق، ١٥٨؛ عسيري، المرجع السابق، ١٣٤.

(٢) الحفظي، المرجع السابق، ٦٨ (هامش المحقق).

(٣) قام الحسن بن خالد الحازمي بهجوم خاطف على (صبيا) بعد علمه بهزيمة طامي بن شعيب أمام قوات محمد علي باشا، واستعاد السيطرة عليها في عام ١٢٣٠ هـ.

انظر: عاكش، الديباج الخسرواني، ١٢٨ ؛ العقيلي، المرجع السابق ٤٧٢/١.

بخفر ذمته وتسليم طامي بن شعيب إلى قوات محمد علي باشا، ومن هنا وبعد القضاء على الحامية المصرية في (طبب) قام محمد بن أحمد بحملة كبرى ضد الشريف حمود، والتقى الجيشان قرب حدود (بني شعبة) الجنوبية، وانضمت قبائل الدرب إلى الشريف حمود ضد حلفائها التقليديين - عسير -، وانتهت المعركة بهزيمة القوات العسيرية في ١٨ رجب ١٢٣١ هـ[١]، ولعل أهم وأبرز النتائج لهذه المعركة أن قادة عسير بدؤوا التفكير في ضرورة التعاون مع الشريف حمود، والتنازل عن مطالبتهم بـ (صبيا) ومخلافها والتركيز على مواجهة القوات المصرية القادمة من الحجاز.

في الجانب الآخر كان الشريف حمود يعاني مشكلة في البيت الحاكم -وهو الخلاف الذي نجم بين الأشراف- نتيجة قيامه باعتقال الشريف يحيى ابن حيدر في شهر شعبان عام ١٢٣٠ هـ، وسجنه بمدينة (الزهرة)، مِمَّا كان سبباً في خروج الشريف علي بن حيدر - ابن أخيه - وفي صحبته الشريف منصور بن ناصر، وغيرهم من أولادهم ومن لاذ بهم من الأشراف، ومغادرة (أبو عريش) متجهين إلى الحجاز لمقابلة والي الحجاز حسن باشا، طلباً للمعونة ضد الشريف حمود[٢].

ولقد كان اعتقال الشريف يحيى القشة التي قصمت ظهر البعير، حيث إن هناك العديد من الأسباب المستترة والتي حركت الأشراف ضد الشريف حمود، ولعل من أبرزها تفرد الشريف حمود بالحكم؛ وكف يد الأشراف عن التدخل

(١) عاكش، الديباج الخسرواني، ١٣٥ ؛ العقيلي، المرجع السابق ٤٧٤/١ ؛ النعمي، المرجع السابق، ١٥٩.

(٢) عاكش، تكملة نفح العود، ٢٨٦.

في شؤون الإمارة[١]، وإطلاق يد وزيره الحسن بن خالد الحازمي في شؤون الحكم دون قيد أو شرط[٢]، وتطلع الشريف علي بن حيدر للعودة إلى الحكم، خاصة وأن الشريف حمود قد انتزع منه الإمارة بالقوة بعد معركة (الحجرين) عام ١٢١٥ هـ[٣]، وكذلك حرمان الشريف منصور بن ناصر من العودة إلى إمارة (صبيا) بعد استعادتها من قوات (عسير) على الرغم من الوعود التي قطعها الشريف حمود على نفسه بإعادته أميراً عليها حسب وضعه السابق[٤].

ولست هنا بصدد تفصيل ومناقشة هذه الأمور؛ وإنَّما الهدف الإشارة إلى الأسباب الكامنة وراء استدعاء الأشراف للقوات المصرية بهدف القضاء على الشريف حمود، والالتجاء إلى محمد علي باشا لبلوغ المقصود، وفي مكة المكرمة التقى زعيما الأشراف المنشقين وهما الشريف علي بن حيدر والشريف منصور بن ناصر بحسن باشا، وبثاه شكواهما، وشرحا له أن الظلم لا يزول عن اليمن إلاَّ بالقضاء على الشريف حمود، ومنّياه بضم البلاد إلى دولته، فوعدهم بإجابة طلبهما بعد انتهاء الحرب مع السعوديين، وخيَّرهما في الإقامة تحت رعايته في الحجاز[٥]، فاختاروا - كما يقول عاكش -: «أن يكون في (حلي بن

(١) عاكش، المرجع السابق، ٢٨٥.

(٢) عاكش، عقود الدرر، ٢٧٩ ؛ الشوكاني، البدر الطالع ٢/٣٧١.

(٣) البهكلي، المرجع السابق، ١٠٨ ؛ العقيلي، محاضرات في الجامعات، ١٣.

(٤) البهكلي، المرجع السابق، ٢٦٠ ؛ عاكش، عقود الدرر، ٨٤٦.

(٥) العقيلي، المخلاف السليماني، ١/٤٧١.

يعقوب) النزول، وتوجهوا من عنده مجبوري الخواطر منشرحي الصدور، بعد أن قرر عن طريق عامل القنفذة ما يقوم بكفايتهم وكفاية أتباعهم، فطاب لهم الحال، وألقوا عن عواتقهم عصا الترحال، وانتظروا ذلك الموعد الذي وقع به بلوغ المآل»[١].

وهكذا أصبحت قوات محمد علي باشا في مواجهة مباشرة مع إمارة (عسير) بعد تحالف القبائل وقيامها بإخراج الحاميات المصرية من معاقلها في (عسير) وتمردها على نفوذ محمد علي باشا، وكذلك مع إمارة (أبو عريش) التي أظهر أميرها الشريف حمود مواقف متقلبة من النفوذ المصري، إضافة إلى دور الأشراف المنشقين في تشويه صورته لدى حاكم عام الحجاز، وطلبهم ضم المخلاف السليماني إلى السيطرة المصرية، يضاف إلى ذلك ما قام به إمام اليمن من شرح لمواقف الشريف حمود وتقلباته ومواقفه السابقة في رسالته إلى محمد علي باشا[٢].

من هنا وجد محمد علي باشا نفسه في مواجهة مع الإمارتين، وخاصة بعد أن نمي إلى علمه خبر الاتفاق الذي أبرمه قادة (عسير) مع الشريف حمود لمواجهة قوات محمد علي[٣]، والتي ظهرت بوادرها في وصول طلائع قوات عسير إلى حدود الحجاز، وبدأ حاكم عام الحجاز في إرسال الحملة تلو الأخرى للسيطرة على عسير والمخلاف السليماني.

---

(١) عاكش، تكملة نفح العود، ٢٨٧.

(٢) صالح رمضان محمود، المرجع السابق، وثيقة رقم (٤٥) من الإمام المتوكل إلى محمد علي باشا، ١٥٤.

(٣) بعد هزيمة محمد بن أحمد المتحمي في درب بني شعبة من ناحية، وهزيمة حسن باشا في حملته على عسير من ناحية ثانية، ووصول الأخبار عن الحشود التي يقوم والي الحجاز بتجهيزها للقضاء على إمارة عسير، إضافة إلى توالي الهزائم على قوات الدرعية، وجد زعماء عسير أنفسهم بين قوتين =

والمتتبع للمراجع التي كتبت عن تاريخ عسير والمخلاف السليماني يجد اختلافاً فيما كتب عن الحملات الفاشلة التي قامت بها قوات محمد علي باشا على هاتين الإمارتين قبل حملة خليل باشا الكبرى، وسأحاول هنا أن أرصد هذه الحملات باختصار وفق الوثائق المتوافرة، والمصادر المحلية الأصيلة، ولن أناقش أخطاء المؤرخين أو أشير إليهم واختلافاتهم؛ لأن ذلك ليس من صلب الموضوع.

١- حملة حسن باشا[١]:

سبق أن ذكرنا أن القوات العسيرية بقيادة محمد بن أحمد المتحمي تجمعت بمجرد خروج محمد علي باشا من المنطقة، وقامت بإخراج الحامية المصرية من (طبب) عاصمة عسير، ومن ثَمَّ عمل محمد علي باشا على تسيير هذه الحملة لاستعادة السيطرة على (عسير) في منتصف عام ١٢٣٢ هـ، وتمكنت الحملة من الوصول إلى (بيشة) ثُمَّ بلاد شهران، ودخلت (طبب) ، وقام قائد الحملة بترتيب حاميات عسكرية في المناطق الرئيسة، وخاصة (طبب) حيث ترك فيها حامية تقدر بألف وخمسمائة جندي بقيادة صبحي آغا، وعين

= معاديتين هما: محمد علي في الشمال، والشريف حمود في الجنوب، ولذا قرروا ضرورة الصلح مع الشريف حمود ومحاولة كسبه إلى جانبهم، عن طريق التنازل له ومبايعته أميراً على عسير، وقد وافق ذلك هوى في نفسه، ورغبته في توحيد الجهود، خاصة وأنه يعلم أن سقوط إمارة عسير يعني سقوط إمارته من ناحية أخرى، وإدراكه أن الأشراف المنشقين يلعبون دوراً خطيراً ضده لدى حاكم عام الحجاز، وقد أبرم الصلح بين الطرفين في منتصف عام ١٢٣٢ هـ.

انظر لمزيد من التفاصيل حول الصلح ومبرراته والظروف المصاحبة له كل من: ابن مسفر، المرجع السابق، ٧٥ ؛ النعمي، المرجع السابق، ١٥٩ ؛ الحفظي، المرجع السابق، ٧٠ - ٧٢ .

(١) وجدت أكثر المصادر تطلق اسم حسني باشا على حسن باشا، وصواب الاسم هو حسن باشا، ويثبت ذلك ختمه الذي يحمل عبارة: ما رآه المؤمنون حسناً فهو عند الله حسن.

انظر: الوثيقة رقم ٧٢ في ١٥ شوال ١٢٣١ هـ / ٨ سبتمبر ١٨١٦ م، والوثيقة رقم ١١٧ في ٢٧ رجب ١٢٣٢ هـ ١٢ / يونيه ١٨١٧ م، وكلاهما في محفظة رقم (٤) بحربرا، دار الوثائق القومية - القاهرة.

مشايخ موالين لسلطته عددهم ثلاثون شيخاً بقصد تشتيت القبائل ليسهل السيطرة عليها، ومن ثَمَّ عاد إلى القنفذة فالحجاز حيث أتم مهمته في أواخر شهر رجب ١٢٣٢ هـ[١].

وما كاد حسن باشا يعود إلى الحجاز حتى انقضت القوات العسيرية بقيادة محمد بن أحمد وسعيد بن مسلط على الحامية المصرية في (طبب)، وفتكوا بها وأخرجوها من المنطقة، وكان رد الفعل من حكومة الحجاز بإرسال حملة جديدة بقيادة جمعة باشا - حاكم القنفذة - لاستعادة السيطرة على (عسير).

٢ - حملة جمعة باشا:

وتختلف الروايات حول هذه الحملة ما بين الوثائق والمصادر، فهناك من يقول بأن الحملة ما كادت تصل إلى مشارف (رجال ألمع) حتى تصدت لها القبائل هناك وهزمتها واضطرت أن تتراجع عائدة إلى الحجاز[٢].

وهناك من يقول: إن (جمعة باشا) قام بحملته يرافقه الشريفان علي بن حيدر، ومنصور بن ناصر، وأثناء سيرها في منطقة (رجال ألمع) بعد السيطرة على (محايل) التقت بقوات الشريف حمود بقيادة الحسن بن خالد الحازمي وحسن بن عطيف الحكمي في موقع يسمى (الحُمَة) وانتهت المعركة بهزيمة جمعة باشا[٣].

---

(١) من حسن باشا محافظ مكة المكرمة إلى السلطان الأعظم في ٢٧ رجب ١٢٣٢ هـ خط همايون رقم ١٩٥٦١ - A، أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول؛ وانظر أيضاً: عبدالرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة ٤٥/٢، وقد ذكر أن الحملة في أواخر عام ١٢٣٢ هـ، وهو خطأ؛ النعمي، المرجع السابق، ١٥٩، وأشار إلى أن الحملة بقيادة حسني باشا وجمعة باشا، وهو خطأ حيث أن الحملة بقيادة حسن باشا فقط؛ الحفظي، المرجع السابق، ٧١.

(٢) عبدالرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة العربيَّة ٤٦/٢.

(٣) الحفظي، المرجع السابق، ٧٣؛ العقيلي، المخلاف السليماني ٤٧٥/١؛ ابن مسفر، المرجع السابق، ٧٦ ؛ النعمي، المرجع السابق، ١٦٠.

إلاَّ أن حسن باشا محافظ (مكة المكرمة) يقدم وصفاً مختلفاً في تقريره الذي أُرسل إلى السلطان العثماني في الثالث من ذي القعدة ١٢٣٢ هـ حيث يقول فيه: «... وقد حدث قبل ذلك في شهر شوال المبارك أن أقدم شيخ عسير محمد بن أحمد على الفساد والفتنة، وتطورت حركته، ومهما حاول شيوخ عسير الذين عُينوا مؤخراً إبعاده وطرده فلم يفلحوا، ورغم أنهم لم يقصروا في واجبهم إلاَّ أنك تعرف حال العربان، وعقب ذلك أرسلت متسلم القنفذة - جمعة باشا آغا - مع قواته إلى تلك النواحي، وقد عاونه الأشراف الموجودون هناك علي بن حيدر وعربان الحجاز وتهامة، وكما ذكرت لكم قام الآغا المذكور من القنفذة وصعد إلى جبال عسير، وأجبر محمد بن أحمد على الصلح، وأخذ خمسة من أقربائه رهائن، وبينما هو عائد إلى القنفذة هاجمه (رجال ألمع) وأنتم تعلمون أن نصف (رجال ألمع) كانوا مع جمعة آغا ونصفهم الآخر يخضعون لحسن بن خالد... ولم يكن هناك بد من هزيمة جمعة آغا وانكسار قواته....»[١].

وقد كان وقع خبر هزيمة جمعة آغا قاسياً على حاكم الحجاز ومحمد علي، خاصة أن هذه الهزيمة وقعت أثناء موسم الحج، وهذا يعني انتشار خبرها في جميع الأقطار، وتشير الوثائق التي بين أيدينا إلى الجهود التي بذلها كل من حاكم الحجاز وحاكم مصر في سبيل توضيح الأمور على حقيقتها للسلطان، خشية من تضخيم الأخبار والشائعات بعد عودة الحجاج[٢].

(١) من حسن باشا محافظ مكة المكرمة إلى السلطان في الثالث من ذي القعدة ١٢٣٢ هـ، خط همايون رقم ١٩٥٩٢ - E، أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

(٢) محمد علي باشا إلى السلطان في ٢٥ محرم ١٢٣٣ هـ، خط همايون رقم ١٩٥٩٢ - G، أرشيف رئاسة الوزراء، إستانبول.

٣ - حملة سنان باشا:

حشد حاكم عام الحجاز حسن باشا قوات كبيرة لاسترداد السيطرة على (عسير) وقمع الشريف حمود بعد هزيمة جمعة باشا، وتتفاوت المصادر أيضاً حول خط سير الحملة واتجاهها، حيث نجد البعض يشير إلى أن الحملة كانت مكونة من جيشين أحدهما بقيادة حسن باشا ويسير عن طريق السراة، والآخر بقيادة جمعة باشا - القائد السابق - ويسير عن طريق الساحل[١]، وهناك من يشير إلى أن الحملة اتجهت إلى (حلي بن يعقوب) ثُمَّ انقسمت إلى قسمين، إحداهما بقيادة سنان باشا واتجهت إلى السراة، والأخرى بقيادة الشريف علي ابن حيدر واتجهت إلى (أبو عريش) حيث وصلت إليها ودخلتها[٢].

وتشير الوثائق إلى أن الحملة بقيادة سنان باشا - قائد سلاح المشاة - وصالح الكاشف - قائد سلاح الفرسان - ثُمَّ تبعتها مفرزة أخرى بقيادة رئيس القناصة مصطفى آغا[٣]، وعند تجمع القوات في القنفذة انضم إليها متسلم القنفذة جمعة باشا بما لديه من قوات، وكان يصاحب الحملة بعض الأشراف المنشقين ومنهم الشريف منصور بن ناصر، وقد تقدمت الحملة باتجاه (عسير) عن طريق محايل[٤].

---

(١) عبدالرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة العربيَّة، ٤٦/٢، ٤٧.

(٢) الحفظي، المرجع السابق، ٧٩.

(٣) تشير إليه الوثائق مرة باسم مصطفى آغا، وأخرى باسم محمد آغا، ولعله اسم مركب: محمد مصطفى آغا كما هو السائد في بلاد الشام وتركيا.

(٤) من حسن باشا إلى السلطان في الثالث من ذي القعدة ١٢٣٢ هـ، خط همايون رقم ١٩٥٩٢ - E، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

- من السلطان إلى محمد علي باشا، في أول رجب ١٢٣٣ هـ، دفتر مهمة مصر رقم (١٢) وثيقة رقم (٤٤٣)، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول (انظر الملاحق).

وتختلف الروايات أيضاً حول موقع المعركة حيث، تشير بعض المصادر التاريخية إلى أن الحملة تمكنت من الوصول إلى السراة واستطاعت السيطرة عن طريق إحدى الفرق على (طبب)، والتقت بقية الحملة مع القوات التي كانت بقيادة الشريف حمود في (الملاحة) حيث هزمت، وقتل قائدها سنان باشا والشريف منصور بن ناصر أثناء فرارهما؛ بعد أن لحقت بهما القوات العسيرية في رأس عقبة (تيَّه)[١].

إلاَّ أن الوثائق التركية تشير إلى غير ذلك حيث تذكر أن قوات الشريف حمود انقضّت على القوات المهاجمة أثناء ارتقائها الجبال عبر عقبة (تيّه) في طريقها إلى عسير، وهزمتها، وقتلت قائدها سنان آغا، والشريف منصور بن ناصر، وعدداً كبيراً من الجنود، وذلك في السادس من شهر ربيع الأول عام ١٢٣٣ هـ، ولم نجد فيها ما يشير إلى وصول الحملة إلى (طبب) أو حتى (الملاحة)[٢].

وهكذا نرى كيف أصبحت إمارة عسير و (أبو عريش) تشكل تحدياً كبيراً لمحمد علي باشا وقواته في الجزيرة العربيَّة، وعلى الرغم من توالي الحملات

(١) عبدالرحيم، محمد علي وشبه الجزيرة العربيَّة ٤٧/٢ ؛ الحفظي، المرجع السابق، ٧٩ - ٨٠ ؛ ابن مسفر، المرجع السابق، ٧٧ ؛ العقيلي، المخلاف السليماني ٤٧٦/١.

(٢) من الصدر الأعظم إلى السلطان، بدون تاريخ، خط همايون رقم ١٩٥٥٣، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول (انظر الملاحق).

- دار الوثائق القومية بالقاهرة، محفظة (٥) بحربرا، رقم ٧٢ وتاريخ ١٣ رجب ١٢٣٣ هـ / ١٩ مايو ١٨١٨ م.

- من السلطان إلى محمد علي باشا، أول رجب ١٢٣٣ هـ، دفتر مهمة مصر رقم (١٢) وثيقة رقم (٤٤٣)، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.

وانظر أيضاً: النعمي، المرجع السابق، ١٦١ ؛ عاكش، الديباج الخسرواني، ١٦٠.

لإخضاعها إلاَّ أنها كانت تبوء بالفشل بمجرد وصولها إلى المنطقة أو بعد مغادرتها بقليل.

ولقد تبودلت التقارير والرسائل بين السلطان ومحمد علي باشا وحاكم عام الحجاز، وتضمنت قلق الإدارة العثمانية مِمَّا يدور في هذه المنطقة، مِمَّا جعل القضاء على تمرد الشريف حمود - الذي أصبح قائداً عاماً لقوات عسير والمخلاف السليماني - أمراً استراتيجياً تحتمه ظروف الصراع القائم في ذلك الوقت.

وعلى الرغم من وفاة الشريف حمود عقب هزيمة سنان باشا في يوم السبت الموافق ١٠ ربيع الثاني ١٢٣٣ هـ[١]، فإن الإدارة العثمانية كانت ترى في ابنه أحمد شخصية قيادية قادرة على الاستمرار في رفع لواء العصيان خاصة بوجود القائد المحنك الحسن بن خالد الحازمي إلى جواره، حيث ورد في التقرير الذي أرسله محمد علي إلى السلطان قوله: «... وقد أفاد رجال الباشا في تقاريرهم أن عُمد البلاد التي كانت تحت تصرف الشريف قد اتفقوا على التبعية لابنه؛ لأن ابنه بطل وفارس، وقادر على الحرب والضرب، ومن الواضح أنه سوف يبز أباه...»[٢]، ومن ثَمَّ كان القرار النهائي هو ضرورة إرسال حملة كبرى قادرة على الإمساك بزمام السيطرة في المنطقة وإخضاعها؛ فكانت حملة خليل باشا على إمارة (أبو عريش).

---

(١) العقيلي، محاضرات في الجامعات، ٣٤ ؛ وقد صحح تاريخ وفاة الشريف حمود المتداول بين المؤرخين بأنه في يوم الإثنين ١٤ ربيع الأول معتمداً في ذلك على رسالة من الحسن بن خالد الحازمي إلى الأمير عبدالله بن سعود.

(٢) من محمد علي باشا إلى السلطان، في ٢٣ جمادى الثانية ١٢٣٣ هـ، خط همايون برقم ١٩٥٦٣، أرشيف رئاسة الوزراء - إستانبول.